المبحث الثاني

عن الأنشطة المدرسية

لا يزال الحشو مستمراً في مناهج التعليم

النظام المعلوماتي الرقمي هو نظام مبني على فلسفة عميقة وجادة تحترم وقت الإنسان، وتهدف إلى توفير جهده وطاقته ليستثمرهما بأفضل صورة ممكنة في التجول بمواقع البحث والاكتشاف، مما يتيح للفرد مضاعفة معلوماته وتطوير خبراته في أقصر وقت ممكن.

هذه الفلسفة العميقة والرؤية المبنية على حماية وقت الإنسان وحفظه من أن يهدر أو يصرف في الشكليات، أو على حساب الأمور الأكثر أهمية تقودنا إلى محاولة استقراء الواقع، والنظر إليه من هذه الزاوية، بهدف قياس مدى المواءمة والانسجام مع هذه الرؤية ميدانيا ومن خلال الممارسات الشائعة.

ولو أخذنا شريحة الشباب كشاهد على النجاح أو الفشل في الوصول إلى الأهداف الكبرى التي وجدت الشبكة الإلكترونية لأجلها؛ فإننا سنصل إلى نتيجة لا تحتمل الشك بأن أغلب شبابنا وفتياتنا مغيبون تماما عن إدراك الغاية من صناعة هذه الوسيلة الإعلامية، بعد أن اختلطت عليهم المفاهيم وعجزوا عن استيعاب أهداف هذه الصناعة والطرق الفاعلة في تحقيقها!!

فاللعب على الإنترنت أصبح بديلاً عن البحث في المواقع

المتميزة، وأصبح هدفاً رئيساً يجتهد الشباب من الجنسين لتحقيقه والوصول إليه بأشكال وصور مختلفة، بعضها بريء ولكنه يأكل الوقت، والآخر محفوف بالمخاطر ونوع من المغامرات التي تبدأ بالرغبة في إشباع الفضول، وتنتهي على غير المتوقع والمأمول!!

وابتداء من إنشاء البريد الإلكتروني، ومرورا بطريقة التعامل مع هذا البريد فيما يستقبله أو ما يرسله، وليس انتهاء بلحظة قطع الاتصال والابتعاد عن الحاسوب، فإننا لا نلمس دلائل واضحة على الجودة في التفكير، والفاعلية في الأداء، الأمر الذي من شأنه أن يقودنا إلى البحث لا عن أسباب الفراغ العقلي الذي ملأ عقول الفتية والفتيات فحسب، وإنما يجب البحث عن الإجراءات الدفاعية الممكنة بغرض تحجيم هذه الظاهرة، والسيطرة عليها، كما يجب اعتماد إستراتيجية فاعلة لترشيد طرق التعامل مع الإنترنت، وإعداد برامج قادرة على دعم المستهلكين.

وتأتي المدارس على رأس المؤسسات الوطنية التي يرجى منها المبادرة في إنجاز هذا المطلب الكبير، خاصة وأن السنوات الماضية لم تشهد إقبالا متزايدا نحو استخدام الشبكة الإلكترونية بهذا القدر نفسه الذي تشهده الآن، وبالتالي لم تكن هناك حاجة ملحة إلى اعتماد برامج تأهيلية وتدريبية لممارسة هذا النوع من التعامل مع وسائل الاتصال الحديثة(*).

(*) تشير بعض الإحصائيات إلى أن عدد مستخدمي الإنترنت في العالم العربي حوالي 7و0 ٪، بينما في الولايات المتحدة وكندا تصل النسبة إلى 40٪ . كما أن 30 ٪ من مستخدمي الإنترنت في العالم العربي يستخدمونه لأغراض المحادثة عن بعد (chat).

من أهم الملاحظات على البرامج التثقيفية والإرشادية التي تم عرضها على هيئة محاضرات وندوات، أنها استخدمت الأسلوب التلقيني المباشر الذي يتشابه إلى حد بعيد مع الطريقة التي يقدم بها المعلم مادته الدراسية، ما أفقد كثيرا من تلك البرامج عناصر التشويق والإثارة التي تعتبر مدخلا مناسبا يمكن البناء عليه، كما أن الاكتفاء بهذا النوع من البرامج من قبل المشرفين على الأنشطة التربوية بالمدارس أدى إلى انتشار حالة من القناعة والرضا، والشعور بالإنجاز لدى أي مدرسة تنفذ بضع محاضرات في العام الدراسي، وذلك فهم قاصر، ولا يصب في نهاية المطاف لمصلحة العملية التربوية، وفيما إذا لم يتم تدارك الأمر، وتفصيل برامج جديدة من حيث المحتوى والشكل بما يتناسب مع الاحتياجات الجديدة لهذا الجيل فإن على التربويين والإدارات المدرسية أن تعلن فشلها الذريع في تحقيق الأهداف الكبرى التي وجدت المدارس لأجلها.

خطورة التراخي عن تقديم برامج تدريبية في الجانب المتعلق بالإنترنت هي أن الفوضى ستكون خيار نسبة كبيرة من أفراد هذه الشريحة، الذين لن يمانعوا من سرد مغامراتهم في مواقع الدردشة على مسامع زملاء آخرين ما يمهد لظهور موجة من التقليد بين صفوف الطلبة أو الطالبات.

إن هذا التشبث بالأدوار التقليدية للبرامج والأنشطة المدرسية من جانب، ولأداء المعلمين والمعلمات من الجانب الآخر، هو إعلان

مدو وقاس بأن هناك تخليا مقصودا أو غير مقصود عن الجيل الحاضر يصاحبه ضعف في الإلمام بطرق احتواء واستيعاب مرحلة المراهقة وجميع هذه المؤشرات تقود إلى نهايات مفتوحة.

ألوان باهتة

مثل ورق (الكوتشينة) بيد لاعب غير محترف تتناثر أوراق الأنشطة المدرسية التي ينقصها وجود رابط يربط بينها وبين الأهداف التربوية العليا، وكما تتبعثر أوراق (الكوتشينة) في أرجاء المكان حين يلهو بها أشخاص لا يمتلكون الخبرة بمعرفة أصول اللعبة تمتد رقعة الأنشطة المدرسية عبر الزمان والمكان تاركة خلفها لوحة مزدحمة بالصور والأشكال ليس بينها ما يوحي للرائي أن ثمة رساماً بارعاً أجاد رسم الخطوط وتوزيع الألوان في تفاصيل لوحته المعقدة!!

إن ما يفقد الكثير من الأنشطة المدرسية ألقها المطلوب هو غياب الوعي بالأهداف النهائية التي يجب أن تتوخاها البرامج المدرسية المختلفة، وبكيفية تحويل تلك البرامج إلى قنوات طبيعية تربط ما بين المنبع والمصب، وتختصر المسافة الفاصلة ما بين الأهداف التربوية وبين واقع الطلاب والطالبات.

لقد صاحب غياب الوعي بكيفية انتقاء الفعاليات الصحيحة غياب الشعور بالأثر السلبي للبرامج غير الهادفة أو المحمية بسياج علمي يحفظ الصورة المشرقة للنشاط المدرسي في أذهان المستهدفين من الطلبة و الطالبات.

ففي الوقت الذي يرفع فيه شعار تفعيل صلة الطالب بالبيئة المدرسية واستثمار طاقته في الاتجاه الصحيح، تغيب الطقوس الديمقراطية والممارسات الواعية، ويختفي مبدأ الانتقاء الذاتي لمسمى النشاط المدرسي الذي يؤديه هذا الطالب أو ذاك، كما تعلو اللغة الفوقية الصادرة من بعض التربويين، والتي تحدد ملامح المنشط المدرسي وسماته وماهيته، مما يحرمه من فرصة اختيار النشاط الذي يرغب به.

وإذا كان الركود والسكون الذي يخيم على بعض المدارس أمرا يثير الاستياء، ويدعو إلى المطالبة الفورية بتحريك المياه الراكدة في تلك البيئات الصامتة التي يغشاها السكون ويلفها الصمت، فإن انتفاء فرص الاختيار أمام الطالب لمسمى النشاط المدرسي هو أمر يدعو بدوره إلى الالتفات، واستدراك نوع الخلل الذي يعوّده على الطاعة العمياء، ويجرده من حقه الطبيعي في رفض ما لا يتحمس له، والاعتذار عن أداء الأعمال التقليدية التي لايراها إلا أعمالا استعراضية فقدت مصداقيتها في حسه منذ زمن!!

من الثابت أن الطاعة المبصرة التي تبنى على القناعات الداخلية وليس على المجاملة هي التي تصنع الشخصية الاستقلالية التي تؤثر في الوسط الاجتماعي دون أن تتأثر إلا بما هو جميل وخلاق.

كما أن التربية على الطاعة العمياء هي المسؤولة عن إنتاج الشخصية الضعيفة التي لا تقوى على مواجهة الآخرين أو الدفاع عن آرائها الخاصة.

وكم خـرّجت لنا المدارس ـ مع الأسف البـالغ ـ شـخـصـيـات انسحابية لا تثق بنفسها أو بمن حولها، ولا تجيد رسم أهدافها بدقة، لأنها طيلة سنوات الدراسة كانت تحت تأثير تربية عقيمة تعتمد التلقين والهيمنة على مسارات فكرها دون أن تتوافر فرص المناقشة لما يعرض من مفاهيم وأفكار تزخر بها الكتب المدرسية ما أضعف لاحقا القدرة على التواصل الفاعل مع المعروض من الأفكار في شتى مناحي الحياة.

لو كان هناك وعي تربوي مسبق لعلم المسؤولون عن التربية والتعليم في البلاد العربية أن التربية الانقيادية غير المبصرة هي رسول الفشل وبريد تشويه الشخصية، وإضعاف مقومات تميزها وريادتها مستقبلا.

وعليه فقد آن الأوان لإعادة حرث بيئتنا التعليمية وتنقيتها من العوامل التي تقصي الإنسان عن دائرة الفعل والتأثير وتنأى به بعيدا عن مواقع الفعل والحركة.

إسقاط حق الطالب في المشاركة..إلى متى؟

يمثل الفرد حجر الزاوية في أي مشروع تنموي ويعد تأهيله وتدريبه مصدرا لحماية الأهداف من التراجع أو الانحسار!!

كما تذهب الدراسات الحديثة إلى أن تدريب الفرد وتطويره يمثل 90٪ من النجاح، بينما تمثل الآلات 10٪ فقط. ولكن السؤال المهم الذي من شأنه أن تتصدر إجابته قائمة أولويات مشاريع التنمية البشرية هو: متى يبدأ إعداد الفرد وتأهيله للمستقبل ليكون قادرا على تحقيق أدواره القيادية في مرحلة النضج ودخول ميدان العمل؟

لا شك أن إجابة هذا السؤال بصراحة وموضوعية من شأنها أن تضع أيدينا على أسباب التسرب الوظيفي المقنع الذي لا يظهر للعيان على شكل تقديم استقالة من العمل إنما ينكشف أمره من خلال انخفاض العائد الإنتاجي و غلبة روح التذمر والاستياء مع المراوحة في موقف التفرج حتى النهاية.

هذه البطالة غير المرئية هي الأخطر والأشد فتكا بأي مشروع تنموي يمكن أن تتبناه المؤسسات الجادة، ولكنه يتكسر على صخور الواقع الذي يحتضن همما باردة، وقلوبا منطفئة الشعور والعاطفة تجاه الاهتمام بصناعة المستقبل أو بأداء دور ريادي فيه.

الثابت أن المتسبب في إنتاج مثل هذه العينات الرديئة هو المناخ التربوي الذي شكل قناعات هؤلاء الأفراد، وأسهم في تقليص أهدافهم الشخصية وانخفاض سقفها عن الحد المأمول وهم الذين تربوا على الخضوع والسمع والطاعة طيلة اثنتي عشرة سنة لم يخرجوا منها إلا بشهادة الثانوية العامة ثم لا شيء فوق ذلك.

من الشواهد على الركود في البيئة التعليمية واقع معارض الكتب في المدارس، وطبيعة الحركة الشرائية التي تصاحبها، و ما قد يتزامن معها من أنشطة ضمن فعاليات معرض الكتاب المدرسي.

ومن فم إحدى المتخصصات أسجل هذه الشهادة التي أدلت بها مربية فاضلة ردا على سؤال ألفتُ طرقه في كل مرة ألتقي بها مع النخب التربوية، ويختص بواقع المعارض المدرسية ومدى النجاح الذي يتحقق من خلالها.

لقد جاء جوابها مؤكدا ـ كالعادة ـ قلة اكتراث الطالبات بهذا النوع من الأنشطة والبرامج حيث قالت: صدقيني، حينما نقيم معارض للكتاب فإن بائع الكتب يقول لي: «لم دعوتموني إلى مدرستكم، أنا هنا أكش الذباب»؟!

لقد جاء جواب المعلمة ليؤكد مدى الإحباط الذي تعاني منه هي وزميلاتها المعلمات، ويشاركهن بصورة قوية في المشاعر المحبطة صاحب المكتبة الذي يحضر إلى مدارس البنات «ليكش

الذبان» على حد تعبيره. فمن المسؤول عن فتور هذه الفئة المستهدفة تجاه المطالعة والتي كان من المنتظر أن تتنافس فيما بينها على شراء أكبر عدد من الكتب الجيدة المحتوى، هل هم الطلبة فعلا، أم هم المعلمون الذين وطنوا تلاميذهم على أن يكونوا متفرجين دون أن يطالبوهم بتحريك عضلات عقولهم باتجاه البحث والتنقيب عن فرص جديدة، وخيارات أفضل تُسهم في تطوير شخصياتهم وتمنحهم المتعة والفائدة.

إن معارض الكتاب المدرسي سوف تنجح إذا ما تسلّم الطلاب والطالبات مسؤولية تنظيم المعرض وإعداده والترويج له وابتكار الآليات التي تدعمه، وتقوده إلى النجاح، حينها فقط يمكن القول: إن معارض الكتاب المدرسي لن تكون بيئة صالحة لوقوف الذباب فوق أغلفة كتب المعارض المدرسية!! (*)

(*) لمزيد من الإيضاح حول أسباب انحسار قيمة الكتاب في عالمنا العربي راجع كتاب في سبيل التغيير / مريم عبدالله النعيمي، الناشر العبيكان 2005م.

البحث عن الجودة المفقودة

متى تتخلص المعلمات من تأثير الأفكار التقليدية حول ماهية الأنشطة الطلابية الأمثل التي تستدعي الاهتمام؟

هذا السؤال هو أحد الأسئلة الفائقة الأهمية الذي ليس له أي إجابة شافية في محيط بيئتنا التعليمية حتى اليوم كما أنه سؤال التحدي الذي عجزت - مع الأسف الشديد - جموع من المدرسات في التعامل معه بطريقة تؤكد حدوث تطور في مفاهيمهن حول التعامل مع الإبداع على النحو الذي يحرك المياه الراكدة، ويمثل إضافة للقابضين على شعلته؟

رسالة وصلتني بالبريد الالكتروني حملت اسم «صرخة استغاثة» من سعاد الطالبة بالمرحلة الثانوية. وكانت رسالة عاصفة بدءاً من العنوان الذي حمل صوت الأنين وطلب النجدة، وانتهاء بسطور الرسالة النارية التي كتبت في لحظة انفعال شديد وشعور بالإحباط والخوف من الفشل في تحقيق مراد معلمتها الأثيرة لديها، فما حكاية سعاد؟

ولماذا أصبحت المعلمة التي تربطها بها مشاعر قوية تثير متاعبها إلى هذا الحد، فتطلب استغاثة عاجلة تقيل عثرتها، وتعيد إليها شيئا من شجاعتها المفقودة؟

قد يكون السبب في مشكلة هذه الطالبة غاية في الغرابة بالنسبة لمن لا يعرفون مجريات الأحداث في الميدان التعليمي أما بالنسبة لي فهو مألوف تماماً، ولدي صندوق رسائل لو فتحته فسوف تنطلق منه أصوات مكبوتة تجأر بمر الشكوى من تطرف بعض المعلمات في التعامل مع الذكاء الطلابي.

إن همّ التعليم في بلادنا حين نلتفت إليه وننشغل به يكفي لينسينا ما هو خارج هذه المستطيلات الرمادية والمربعات الإسمنتية التي اصطلح على تسميتها مدارس، تلك الأماكن التي تتوارى خلفها كائنات صغيرة تتأبط الحقائب المدرسية بيمينها، والأمل المنتظر بشمالها، وتنظر إلى المستقبل بشيء من الثقة وكثير من الخوف. فإذا ما اختبرت الأرض تحت قدميها، ونظرت إلى من حولها لم تجد إلا علامات الملل، وأمارات الضيق بادية على العيون التي أطلق لها العنان ولم يعد لديها ميزان فيما يستحق التأمل والتفكير، أو ما لا يستحق النظرة أو الالتفات.

وعودة إلى رسالة سعاد نفاجأ بكمٍ من التناقضات في التعامل مع موهبتها فهي كما تحدثت عن نفسها تحب الكتابة وهي بشهادة معلمتها التي تسببت في إثارة مشاعر الإحباط لديها موهوبة ومتميزة لذا لم تبخل عليها تلك المعلمة بعبارات المديح والإطراء التي أصبحت تمطرها بها كلما دخلت الفصل ونظرت إليها.

وعلى أثر تلك الحملة التشجيعية الطويلة الأمد طلبت منها أن تشترك في مسابقة الوزارة في مجال الكتابة الأدبية.

بعد موافقة الطالبة، وانشغالها بإتقان العمل الذي أسند إليها، حدث ما لم يكن في الحسبان فقد أخبرتها معلمتها أنها لن تقدم عملها إلى لجنة المسابقة إلا إذا تدخلت وأجرت تغييرا يتناسب مع الصورة المرسومة في خيالها حول العمل القادر على الوصول إلى المركز الأول.

وهنا أسقط في يد الطالبة سعاد فليس لديها الوقت الكافي لتنجز عملها، ثم لتعرضه على المعلمة وتقوم الأخيرة بالإضافات والتغييرات التي تريد مما أوقعها في الحرج والإحساس بأنها في أزمة حقيقية.

ترى ما الخطأ الذي قامت به تلك المعلمة، وأدى إلى أن تتحول سعادة طالبتها إلى حزن عميق وفتور في خوض التجربة التي بدأت بداية رائعة وانتهت وهي تطلب استغاثة للخروج منها بأقل الأضرار النفسية الممكنة؟

أعتقد أنه ليس صعبا على كل من لديه أدنى إلمام بطرق التعامل مع الموهوبين أن المعلمة أخطأت في التعامل مع طالبتها المبدعة، فالخطأ الأول كان في إغداق المديح دون حد مما أخرج المعلمة عن سبيل الاعتدال وجعل الفتاة تشعر أن لديها إمكانات خارقة وهو ما عبرت عنه بشكل صريح في رسالتها المطولة إذ شعرت أن عليها أن تأتي بالكمال لأنها مؤهلة له، وكان الخطأ الثاني حين طلبت منها المشاركة في المسابقة ثم أقحمت نفسها في

عمل الطالبة الأدبي، على الرغم من أن العمل الأدبي لا يحتمل المتطفلين والدخلاء حتى لو كانوا أساتذة في اللغة العربية، إلا في أضيق الحالات وتحديدا في استدراك الأخطاء النحوية والإملائية، أما التدخل بالشكل الذي أشارت إليه الطالبة فهو محاولة فاشلة للتجميل سرعان ما ستتحول إلى عمل هجين يفقد العمل الأصلي بهاءه، ويغير نكهته الخاصة، وفي المجمل يخرج العمل هجينا لا هو من صنع الطالبة ولا من صنع من أقحمت نفسها في العمل!!

إن الأنشطة الطلابية هي المنفذ الطبيعي لتمرير رسائل إيجابية من الطالب إلى معلميه يؤكد من خلالها قدرته على المشاركة العملية في المسابقات والبرامج التي تصدر من داخل المدرسة ومن خارجها.

ومن الطبيعي أن ننتظر من المعلمين والمعلمات مواقف مسؤولة تؤكد استيعابهم لأهمية التعامل الذكي مع مبادرات الجيل، والاحتفاء بما لديهم من إبداعات فنية وأدبية الأمر الذي يتطلب منهم العناية بألفاظهم، وردود أفعالهم فيما لو كان العمل المقدم يحمل مواصفات أقل من الشروط التي لديهم.

فالتشجيع مطلوب على كل حال، ومهما كان مستوى العمل الذي يقدمه الطالب بسيطا وعادياً، فإن إشعار الطالب بتدني مستوى إنتاجه هو سلوك سلبي، سوف يترتب عليه جملة من ردود الأفعال الضعيفة الأثر لدى الطرف الذي كان ينتظر الدعم والمساندة.

وحين نؤكد على أهمية القيام بالدور التحفيزي وتقديم الدعم المعنوي الكافي لكل المحاولات النابعة من الطلاب والطالبات، فما ذلك إلا لأهداف عليا تتجاوز المنشط الذي استغرق بعضا من وقت الطالب إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير.

فالهدف الذي نتوخاه من دعوتنا لمنح الثقة بالطالب يتعلق بتكوين الشخصية القيادية القادرة على الفعل والتأثير، الواثقة بإمكاناتها الذاتية، والمتطلعة إلى اتخاذ مواقع متقدمة في مجتمعها في المراحل العمرية التالية. وهذا الهدف لن يتحقق من فراغ، بل يحتاج إلى وعي متقدم بأولويات صناعة الإنسان الناضج، وأسس التعامل الفاعل مع الشخصية الطلابية.

وعلى هذا الأساس يمكن النظر إلى الأنشطة الطلابية على أنها سلاح ذو حدين، فهي إما أن تؤدي إلى زيادة التقارب النفسي بين الطالب ومعلمه، وإما أن تتسبب في حدوث فتور في العلاقة بين الطرفين، فيما لو امتنع المعلم عن تشجيع الطالب أو قللّ من قيمة الجهد الذي بذله في النشاط الذي قام به الأخير.

ما يجب أن يلتفت إليه المعلمون والمعلمات وهم في زحمة انشغالهم بالانتهاء من مناهجهم الدراسية هو أن أفضل الفرص لتخريج جيل واع معافى النفس والعقل والروح يكمن في استثمار مبادرات الطلاب الذاتية، وكسر الحواجز المصطنعة التي تحول بينهم وبين الانسجام مع طلبتهم المجدين.

لا شك أن كل كلمة أو إيماءة تصدر من المعلم تترك انطباعاً خاصاً لدى الطالب، وحكم المعلم يعتبر حكماً نهائياً يرضخ له الطالب، ويتعامل معه بجدية تامة.

فيما لو جاء الحكم سلبيا فإن شعور الطالب بالإحباط، وانخفاض تقويم الذات يعتبران مسألة ممكنة الحدوث بل ومتوقعة بدرجة مرتفعة في ظل تراجع حماس المعلم وامتناعه عن الثناء على محاولة الطالب وجهده المبذول.

إن الإشكالية التي تحول دون تحقيق هذا الغرض هي اعتقاد من في الميدان التعليمي بأن الإصرار على المطالبة بمضاعفة الجهد، والمزيد من التجديد في مستوى الأنشطة التي يقدمها الطالب ستزيد من كفاءته وستصقل مهارته الفنية أو الأدبية وهي إشكالية يمكن تجاوزها فيما لو وثق المعلمون بالطاقة الهائلة التي يبعثها التشجيع في نفوس الطلاب.

فالتشجيع هو السحر الحلال، والوصفة الشاملة لعلاج المشكلات الطلابية المستعصية على الحل كما أنه وصفة وقائية بل وعلاجية نظراً لفاعلية الأثر الذي يتركه في نفوس الطلاب.

وكم نهض التشجيع بهمة المتثائبين من التلاميذ وأيقظهم من سباتهم، وأعادهم من جديد إلى أجواء الدراسة وآفاق البحث، فأعادوا اكتشاف أنفسهم وتصالحوا مع العلم بعد طول جفاء وخصومة.

إن للإبداع طقوساً كما أن له أجواء تمنحه الانطلاقة التي يحتاج إليها.

ومن الإبداع التربوي أن يظل المعلم هو الصانع الأول للمبدعين، والنموذج الكفء القادر على حماية شعلة التميز من أن تخبو أو تنطفئ.

وهذه -بلاشك- مهمة صانعي الروَّاد، وذلك هو اختيار التربية الشاملة التي تصّر على أن يستوعب المعلم كافة أدواره دون استثناء.

تخمة في حضور المحافل..!!

حين نراهن على التعليم ونضع فيه آمالنا فإن ذلك بسبب خطورة الدور الذي تقوم به هذه المؤسسة الفائقة الأهمية. ولأجل ذلك فنحن محقون في تطلعنا إلى تميز البيئة التعليمية، بكل مكوناتها وعناصرها على نحو يتيح للطلاب تلقي أفضل الخدمات التعليمية، ويهيئهم لمستقبل واعد. غير أن السؤال الذي يطل برأسه: ماذا عن الوسائل التي تمهد لمثل هذه البيئة وتساعد على صنعها؟. والإجابة العملية أن البناء من أجل الاستمرار يمكن أن يبدأ عن طريق تقديم معايير إدارية ومفاهيم متطورة إلى البيئة التعليمية لكي يتسنى للعاملين في الميدان تكوين بنية تحتية من المفاهيم والخبرات النظرية الجيدة تدفعهم لتطوير برامجهم، وتحسن من أدائهم العام. ومن هذا المنطلق تعتبر البرامج التدريبية والمؤتمرات وورش العمل أفكاراً عملية يمكن الترحيب بها من حيث المبدأ، واعتبارها حلقة وصل تردم الهوة ما بين الواقع والمثال في المناخ التعليمي الذي كثرت عليه الملاحظات، وتناولته الأقلام والأفواه بالنقد وتوجيه الملاحظات. ومما يعزز من الحماس للاستمرار في تقديم برامج تدريبية ولقاءات مفتوحة مع العاملين في الميدان التعليمي، القناعة المطلقة بأن الكلمة ملفوظة كانت أم مكتوبة هي

رسول الأفكار الخلاقة إلى الأجهزة التي تتولى مهام التربية والتعليم خاصة وأن كثيراً من أعضاء هذه الأجهزة مثقلون بالواجبات اليومية التي تتطلبها المهنة، ويشق عليهم ـ في كثير من الأحيان ـ إيجاد الوقت الكافي لزيادة رصيدهم من الخبرات العلمية في مجال تخصصهم أو المجالات الأخرى. والأمر المرجو من الانفتاح على البرامج التدريبية أن نلمس تحسنا ملحوظاً في مناخ التعليم يعكس مدى الاستفادة من اللقاءات المفتوحة، والاحتكاك المباشر مع بعض الرموز العلمية ممن يقدمون تلك البرامج. لكن ذلك الهدف لم يتحقق ـ مع الأسف الشديد ـ في كثير من المرات، والسبب أن الاستماع بالأذن دون التفاعل مع الأفكار المطروقة هو قرار مبكر بالتخلي عن تحمل أي تبعات إزاء ما يقدم من آراء جديرة بالاعتناء، وتستحق المزيد من العناية والجهد لتحويلها إلى واقع ملموس. والاستماع السلبي الذي يعفي صاحبه من أي مسؤولية هو واحد من آفاتنا الاجتماعية الخطيرة التي نعاني منها، والتي أفضت إلى تكريس الأخطاء، حيث إن المعرفة شيء، والسلوك شيء آخر. وهذه بعض المواقف التي اجتمعت في يوم واحد وترجمت حالة الانفصام ما بين النظرية والتطبيق. ففي ساعة الاستراحة التي فصلت ما بين أوراق العمل المقدمة إلى مؤتمر التعليم المتميز الذي ترعاه الحكومة الإلكترونية بدبي دار الحديث التالي بين مجموعة من الإداريات المشاركات في اللقاء. الإدارية الأولى: إني راغبة في الانصراف غير أن ورقة الباحث (وأشارت

إلى اسمه) والتي ستعرض في هذا اليوم مازالت بعيدة. زميلتها: نعم أنت على حق، إن كلمة هذا الباحث تستحق المكوث والانتظار.

الأولى: لكنك تتذكرين أن هذه الورقة التي ننتظرها، والتي تحمل عنوان «الطريق إلى الجودة الشاملة» كنا قد استمعنا إليها من خلال برنامج تدريبي مطول استغرق أسبوعين قدمه لنا هذا الباحث في السنوات الماضية فلماذا نجلس حتى نستمع إلى الكلام مختصراً وقد وصل إلينا في الماضي مطولا؟!!

زميلتها: أنت محقة تماماً، وقد غاب عنك أننا استمعنا إلى ورقته للمرة الثانية في مؤتمر تربوي عقد السنة الماضية في أبوظبي وبالتالي ليس ثمة حاجة للبقاء. الأولى: معك حق.

وما إن انتهى هذا الحوار الغريب حتى تكرر السيناريو والأداء على مقربة مني مرة ثانية بين مجموعة أخرى كن يفكرن بصوت عال، ويظهرن التردد في المكوث أو الانصراف، ثم سرعان ما يصلن إلى القرار نفسه ويحزمن أوراقهن للرحيل، وسبب الحيرة يتكرر من جديد حول البحث الجيد الذي ينتظرن سماعه على الرغم من أنهن يعلمن محتوياته منذ زمن!! ترى ما هو الانطباع الذي يمكن أن نأخذه من هذه الحوارات الجانبية التي شهدت على وجود «معرفة نظرية فائضة» لدى بعض المعنيات بقضايا التنشئة التعليمية بمواصفات الجودة الشاملة في مقابل وجود «ندرة تطبيقية» لشروط ومواصفات الجودة.

إن مديرات المدارس ـ بصورة عامة ـ هن من أكثر العناصر التربوية حضوراً للملتقيات والندوات والمؤتمرات، لذا فليس من العدل والانصاف ألا نجد أثراً يستحق الإشادة في الوسط المدرسي على الرغم من الفائض في المعلومات والوفرة في الأفكار. لكننا نقول من جديد: شتان شتان بين من يستمع ليطبق، ومن يستمع ليحصل على المزيد من شهادات المشاركة. بالتأكيد ليست النائحة كالثكلى، وليس الادعاء كالحقيقة الماثلة.

البحث عن الأسهل

لقد أفرز استبعاد المسؤولية الفردية من التحرك نحو أهداف عملية إثْرَ المشاركة في حضور المؤتمرات والبرامج التدريبية شريحة هائلة العدد من المستمعين ممن لديهم «ثقافة سمعية جيدة» مصحوبة بمشاعر الرضى والإعجاب بالنفس بكم المعلومات التي تيسرت دون عناء، وتهيأت دون جهد ملحوظ، وحسبوا أن تلك الغنائم الباردة أقصى ما يمكنهم الحصول عليه، وأرقى ما قد يصلهم من مفاهيم، وبسبب ذلك الخلط في تصور طبيعة العلاقة بين الفرد والثقافة الشاملة غاب عنهم أن المعرفة السمعية شيء والتطبيق العملي شيء آخر.

إن استسهال أخذ المعلومات بالطريقة الشفوية قلص هامش العمل الإيجابي وأوصله إلى الحدود الدنيا سواء أكان ذلك في

الميدان التعليمي أم في الميادين الأخرى التي تتطلب قدراً من التمكن العلمي، وعزماً على الالتزام بمطالب العمل من كفاءة مهنية وتميز أخلاقي كشرط للتفوق والإنجاز.

والذين جعلوا الاستماع المصدر الوحيد للتلقي المعرفي جهلوا الفرق بين «الوعي للمسؤولية» و«الوعي لمجرد الترف الذهني» واختلط عليهم الأمران بصورة يؤسف لها.

فالوعي للمسؤولية هو مفهوم حضاري يخاطب الفرد بكونه أداة فاعلة من أدوات التغيير، ويضع في عنقه أمانة فائقة الأهمية بحكم كونه عنصراً قادراً على العمل الإيجابي متى ما زود بمعلومات ومفاهيم تهدف إلى تطويره وتفعيل وجوده.

بينما يغيب هذا البعد الحضاري لدى فئة المستمعين لمجرد الترف الذهني، والتخمة المعلوماتية في نوع أو أكثر من أنواع المعرفة الإنسانية، حيث يضعف الشعور بالمسؤولية الفردية، ويرضى الفرد بدور جامع المعلومات عن طريق الاستماع طمعاً في أن ينفي عن نفسه تهمة الجهل والتأخر عن الأقران، بينما نسي مثل هذا الفرد أن الجهل المرعب ليس في الغفلة عن بعض المعلومات وتفويت فرص المشاركة في بعض اللقاءات الحوارية إنما الجهل الحقيقي في تكريس الخطأ، والاستمرار في تكرار السلوك السلبي على الرغم من المعرفة النظرية بفداحة هذا السلوك!!

إن غياب الوعي بأهمية إجراء تغيير داخلي يضبط سلوك الفرد وفق الإيقاع الذي بثته المعارف التي تلقاها وهو في حالة من

السبات الذهني، والغفلة عما هو آت أمر ينبغي التصدي له من قبل المهتمين بقضايا التنمية الاجتماعية والبشرية حيث إن الجهل بسنن التغيير الاجتماعي لن ينتج جمهوراً قادراً على التحرك في الاتجاه الصحيح!! وعليه، فلابد من الاعتراف أن مجمل خسائرنا على مستوى المؤسسات الرسمية والأهلية لم تأت بسبب نقص المعلومات في الهيكلة الإدارية الأمثل، أو في طرق التعامل بين مجموعات العمل المختلفة، إنما جاءتنا الويلات من الإصرار على السلوك السلبي، والخصام مع الأفكار الإصلاحية، والمفاهيم الخلاقة التي تطالب الفرد - قبل سواه - أن يبدأ بنفسه، وأن يلزمها بأفضل الممارسات بغض النظر عن سلوك الآخرين ومدى اقترابهم أو ابتعادهم عن المثل التي آمنت بها الآذان ورفضتها الجوارح!! ومن أبشع ما يمكن أن يشوّه الفرد من الداخل أن يشترط حصول التغيير من الآخرين ليتحرك هو في المرحلة التالية، وبدلا من أن يكون أحد رواد التغيير في بيئته الخاصة ومحيطه الاجتماعي، يمارس سياسة انتظار ما ستسفر عنه الأيام المقبلة بغض النظر عن إمكانية الحصول على هذا الدفع الجماعي الذي أصبح مطلبا عسير المنال!! العبرة إذن ليست بتوفر المعلومة أو بغيابها إنما العبرة بالقابلية لهضم المعلومة النافعة والاستعداد النفسي لدفع الثمن المطلوب لرؤيتها واقعا حيا يشهد على جدارة هذا الإنسان للتطور ومصداقيته الأخلاقية في التعامل مع الأفكار والمفاهيم.

ومـا لم يصل الفـرد إلى هذا المسـتـوى من الوعي في أثناء التـعـامل مع المعلومـات التي تصل إليـه عن طريق المشـاهدة أو الاستماع فإن الحكم عليه بالخمول وعدم الاستعداد لدفع ضريبة التميز يصبح أمراً مفهوماً خاصة وأننا جميعاً نتفق على أن الاعـتـراف بوجـود الخلل أجـدى من المداهنة والرياء والتـجـمل القبـيح!!

غيرة على العمل

اتصلت بي هاتفيا من المدرسة وأبدت رغبتها في زيارتي لأمر مهم، وحينما استقر بنا المجلس بادرتني قائلة: هناك طلب أريده منك، وتشاركني فيه مديرة المدرسة ونائبتها، قلت لها: خيرا إن شاء الله، وأرجو أن أوفق في تلبية الطلب.

أجابت نريد منك دورة تدريبية حول صفات المعلمة الفاعلة.

ولم تمهلني للتفكير والنظر في هذا الطلب الذي يحمل نبرة الإلحاح والتوكيد.

لقد واصلت حديثها الذي يبدو منذ بدايته أنه ذو شجون قائلة: هناك ملاحظات على بعض المعلمات وترغب الإدارة في استدراكها وإحلال صفات أخرى إيجابية بدلا عنها.

سألتها: وما هي نوعية تلك الملاحظات؟!!

أجابت: بعض المعلمات -عفا الله عنهن - لا يلتزمن بآداب الحديث أثناء اتصالهن بالطالبات وهن لا يترددن في إلقاء بعض العبارات الجارحة على مسامع بعض الطالبات!!

ثم أضافت قائلة: أنت تعلمين أن المعلمة قدوة فكيف تصدر مثل تلك الألفاظ الجارحة عمن يعتبرن الرمز والقدوة وينظر إليهن على أنهن المربيات وصانعات الأجيال؟!!

ابتسمت بهدوء محاولة امتصاص ذلك الغضب البادي على محيا صديقتي، وودت التخفيف عنها ومساندتها في هدفها النبيل، وسألتها قائلة: هل عددهن كبير؟

أجابتني بلغة معاتبة: ولماذا تسألين عن العدد، ألست معي أن هذا التصرف مرفوض بغض النظر عن حجمه وانتشاره خاصة وأن أمامنا مسؤولية عظيمة حيث لاخيار أمامنا غير الالتزام بتفاصيل الدور المطلوب منا تجاه الطالبات؟!!

لقد تملكني شعور غامر بروعة هذا الانتماء لبيئة العمل، وهذا الفخر بالدور الكبير الذي أنيط بالمعلمين والمعلمات، ولم أستطع أن أكتمها إعجابي الشديد وسروري بهذه الروح الخلاقة التي تحملها بين جنبيها.

إن الدم ليتدفق حارا غزيرا كلما رأى الإنسان أو شاهد نماذج فاعلة في المجتمع تتحرك بشعور الواجب تجاه المؤسسة التي تنتمي إليها وتتطلع لخدمة مجتمعها والإضافة إليه، يملؤها الشعور بالاحترام لذاتها ووظيفتها، وبالغيرة على العمل الذي تؤديه وفق نظرة شاملة تتبنى العمل الجماعي وترفض العمل الفردي وتشعر أن القوة الحقيقية في التأثير تنبع من خلال استدراك العيوب وتلافي الأخطاء ولهذا فهي لا تفتأ تنشد الإصلاح وتسعى للارتقاء بذاتها أولاً وبمن حولها ثانياً.

تأبى العزلة وترفض أن تغمض عينيها على التقصير أو الزلل، تحب زملاءها وتغار عليهم من الخطأ، وبدافع من هذا الانتماء

تجتهد لاستدراك الأخطاء يحدوها الشعور بأن النجاح لا يأتي من التستر على العيوب أو القفز فوقها إنما تسعى جاهدة لتقول كلمتها وتدلي برأيها وتطلب المشورة والمساعدة ممن تثق بهم وتراهم أهلا لذلك.

في الحقيقة لقد ملأني الحماس وأصبت بالأعراض نفسها التي بدت على هذه المدرسة المتألقة فحددت لها موعدا لتقديم الدورة التي طلبت، وفي اليوم المحدد ذهبت إلى هناك ووجدت أن روحا جادة تسري في تلك المدرسة، ومع الدورة كانت هناك عدة مناشط تهدف إلى الغرض ذاته.

لم يطل الأمر كثيراً ولم يتأخر الرد فبعد مرور شهرين اتصلت بصديقتي لأسألها عن آثار تلك الفعاليات والبرامج. أجابتني وبصوت تعلوه نبرة الانتصار والظفر. "يا صديقتي لقد بدأ التغيير، وبدأنا نقطف ثمرات جهدنا مع الزميلات".

فرسان التميز

ما إن تعلن نتائج جوائز المسابقات المخصصة للميدان التعليمي.. إلا وتعبق الأجواء بأنفاس البهجة، وتكتسي النفوس بألوان السرور والغبطة والانتعاش، وكيف لا والتميز هو حصاد الجهد المقدم والعمل الدؤوب والحيوية اللافتة التي جعلت من الباحثين عن المتميزين يلتفتون إلى أولئك الفرسان، فيقدمونهم ويفسحون لهم المجال ليظهر عطاؤهم متلألئا ضاحكا لجمهور المتفرجين، وكأنه يبعث رسالة إلى كل مشتاق لعبق السبق ونسيم الفوز بأن الطريق الجاد نهايته الفلاح، وأن الإخلاص والتدفق يقودان حتما إلى تحقيق إنجاز على مستوى متقدم يستمطر ثناء المتابعين، ويستدعي معاني الفخر والثقة بهؤلاء المتمتعين بهذه القدرة على العطاء والبذل.

ولعل الالتفات إلى الأسرة المتميزة يُعد وقفة مهمة تملي على كل باحث في الشأن التربوي أن يسجل شهادته ويدلي برأيه في ذلك السر المكنون الذي تخفيه تلك الأسر الواعدة!!

إن من يكشف سر ذلك التميز يكون قد قدم خدمة للأسر التي تتساءل عن سر ذلك السبق.

من يميط اللثام عن سبب ذلك التألق الذي كسا تلك العائلات فرشحها بجدارة واستحقاق للفوز بجوائز التميز، يكون قد صنع خيرا وأفشى ما هو جدير بالبوح والنشر والبيان.

إن سر توافر هذه الخصوصية وامتلاك هذا النجاح اللافت سر جدير بالكشف، وتعتبر إشاعته ضربا من ضروب العمل الصالح، ونوعا من تقديم الخدمة المتميزة إلى مستحقيها الكرام، وهو زكاة العلم، وضريبة المعرفة، فأستأذن تلك الأسر الرائدة أن أدلي بشهادتي بصفتي باحثة في قضايا الأسرة فأقول بإصرار وتأكيد إن سر الأداء الأسري المتميز والأبناء النجباء الناجحين يكمن في ثنايا تلك العبارة المغذية للهمة والباعثة للعزم: "إذا كان الوصول إلى الأفضل ممكنا فالجيد غير كاف" هذا هو البيان الموجز وإليكم التفاصيل.

في الحقيقة يتمتع الآباء المتميزون بمستوى عال من الطموح سواء أكان في أهدافهم المتعلقة بالعمل، أم في أهدافهم المتعلقة بالأسرة.

فهم في هذين المجالين ينظرون النظرة ذاتها من حيث توافر الهدف الكبير والغاية البعيدة والرغبة في التفوق على النفس.

منافسة هؤلاء الآباء مع أنفسهم وليس مع أحد سواهم، وكلما حققوا شيئا من النجاح لاح لهم في الأفق هدف حيوي جديد فيسرعون إليه بذات الهمة المتجددة، وذات التوق والشوق نحو

الإنجاز والتقدم، يرفدهم في ذلك أفق واسع، وتشحذهم نفس تواقة إلى النجاح والفلاح.

وقد يسأل أحد المعجبين بهذه النفوس الكبيرة كيف يمكن أن يسجل هؤلاء الآباء مثل هذا النجاح المضاعف في داخل الأسرة، وأيضا في خارجها؟ وكيف لهم أن يسجلوا في المجالين معاً سبقاً وفوزاً لافتاً؟ ولماذا لا يحدث تصادم بين الدائرتين دائرة العمل، ودائرة الأسرة؟

وهي أسئلة ذكية خليقة بأن تحظى بجواب شاف، والإجابة الحاضرة عن هذه الأسئلة المباشرة هي امتلاك أولئك الآباء القدرة على التوازن بين هذين المجالين بالغي الحيوية والحساسية والقيمة.

وإضافة إلى القدرة على التوازن فإن هناك بعداً أكبر ونظرة أشمل تسكن في داخل تلك النفوس الكبيرة، وهي تحقيق الانسجام والتناغم بين الأهداف الكبيرة التي يغذون السير نحو تحقيقها وبين القيم والمبادئ التي اطمأنت إليها نفوسهم، هذا الانسجام والتناغم هو إكسير النجاح وتعويذة الفلاح، وهو بيت القصيد، وفحوى الخطاب.

نعم هناك ألفة عجيبة، وصداقة عميقة بين سلوك أولئك الآباء، وبين أهدافهم، يظهر ذلك من خلال التزام تلك الأهداف تخطيطا وتنفيذا بوثيقة القيم والمبادئ التي استقرت في نفوسهم،

فحفظت لهم خط سيرهم، وأكسبتهم الحماية من الوقوع في الأخطار، وزودتهم بالقدرة على المواصلة على الرغم من اختلاف الظروف والأوضاع التي تمر بهم.

ولعل توافر الإرادة على تحقيق الأهداف المرسومة هو المورد الحقيقي الذي ما زال يمدهم بالقدرة على الاستمرار على الرغم من اعتراض الصعوبات التي لا شك أنها فاجأت سواهم ممن تعثروا أو توقفوا أو استسلموا وأعلنوا الانسحاب من إكمال الطريق، بينما استمر أصحاب الإرادة الحرة في طريقهم بعد أن أنضجتهم التجارب، وأكسبتهم الصعاب مناعة ذاتية ضد العجز أو إعلان الفشل.

ولو يممنا وجهنا شطر الأبناء، ورصدنا أداءهم العملي أو السلوكي لوجدنا أن تلك الروح المتوثبة التي يمتلكها آباؤهم تقف وراء الأداء الممتع الذي يؤدونه في مدارسهم وعبر محيطهم الاجتماعي.

إن مقداراً عالياً من توافر الشفافية بين الآباء والأبناء، أكسب تلك الأسر قدرة فريدة على التواصل الدائم، ومنحهم الطاقة على تجسيد الصورة الصحيحة للأسرة المتفاعلة التي تحترم فيها الآراء وتقدر فيها وجهات النظر.

إن الارتباط العائلي الصحيح هو الذي يعمل فيه الجميع بروح الفريق الواحد، وقد توحدت الرؤى ووضحت الوسائل للجميع.

النجاح الحقيقي لا يصنعه فرد واحد، بل يصنعه العمل المنظم الذي يستوعب طاقات الجميع.

هذه المعادلة أتقنها الموفقون من المربين، والملهمون من مهندسي النجاح البشري المنشود.

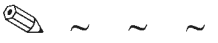

الشكل أم المضمون

أعتقد أنها قضية ليست مثيرة للجدل من حيث الفكرة والتصور ولكنها كذلك حين تنزل إلى ميدان التطبيق وتتفاعل مع الواقع.

فالجميع يعترف من حيث المبدأ أن الجوهر له قيمة عالية وأن المضمون هو الأساس والمقصد.

وإن الشكل ـ على الرغم من أهميته وقيمته ـ إلا أنه لا يمكن أن يكون بديلاً عن المضمون والجوهر.

الشكل الجميل لا يمكن أن يكون بديلاً عن المضمون الجميل، ومهما اجتهد الإنسان في تعديل الصورة وكان المضمون ضعيفاً أو هشاً فإن جمال الشكل لن يعدو أن يكون استعراضاً أجوف أو ادعاء عارياً عن الصحة وغير مسنود بدليل.

تلكم قضية مهمة إذن وتستحق أن تصرف لها الجهود لكي يحظى الأداء التربوي بعمل يرتفع في قيمته ومستواه عن الوقوف أمام الشكليات، لينفذ إلى الحقائق ويستبطن القيمة المجردة ليجعلها هدفاً نبيلاً يسعى إليه كافة المشاركين في مسيرة التربية والتعليم.

وإذا سلمنا طائعين أن تربية الطلاب والطالبات على البحث العلمي، والاجتهاد في تحصيل المعرفة ينبغي أن يكون هدفا يراهن كل معلم ناجح وكل معلمة مسؤولة على تحقيقه في نفوس الدارسين، فإن الوسائل ينبغي أن تأتي ملبية لذلك الهدف الكبير.

ومما يمهد لإدراك هذه الغاية حسن إعداد المعلمين لطلبتهم للوصول بهم إلى المستوى المأمول من الاجتهاد في هذا الطريق، ومما يؤسس لها كذلك صفاء ذهن المعلم وتوقد قريحته، وابتكاره للوسائل العملية المناسبة التي تثير في الطالب الحماسة للتعلم وتطلقه في آفاق البحث والتدريب الذاتي الحثيث لقطع أشواط في رحلته السامية نحو التألق والسبق.

إن الهدف الكبير إن لم تسنده وسائل فاعلة لن يجد له حيزا على أرض الواقع ولن يرى النور طالما أن الوسائل بعيدة عن تحقيق الهدف.

ولعلني لا أكون مبالغة إذا قلت إنها لطامة كبرى إذا ما زاد عدد أولئك المعلمين والمعلمات الذين يهدفون إلى رفع المستوى العلمي لطلبتهم وطالباتهم، ثم تأتي وسائلهم بعيدة عن تلك الأهداف وكأن حالهم يعبر عن تلك الصورة التي عناها الشاعر بقوله:

سارت مشرقة وسرت مغربا

شتان بين مشرق ومغرب

إن هذا الأمر -مع بالغ الأسف- يحدث دون انتباه في عدد من مدارسنا ويمارس في كثير من الفصول الدراسية والشواهد تترى على صحة ما أقول.

ولعل مدارس الطالبات لها قدم السبق وباتت تستأثر بنصيب الأسد في تطبيق معنى الانفصام بين الأهداف العلمية وبين الوسائل والأساليب التطبيقية.

فعلى سبيل المثال هناك فئة من المدرسات لديهن اعتقاد كبير مصحوب بحماس ليس له نظير بأن التفوق والتحصيل طريقه المختصر يأتي من خلال الرسم والتلوين، وقص الصور ولصقها وجمع الصور وصفها وزخرفة الأوراق وتسطيرها.

يصاحب هذا المهرجان للألوان مهرجان آخر اسمه مهرجان الفن والإبداع فمن الرسم بالرصاص إلى الرسم بالألوان الخشبية ثم المائية أو الشمعية.

ومن أجل حمل الطالبات على الاستجابة لتلك المطالب الجمالية - التي تأتي في الغالب بلغة حازمة شديدة اللهجة وغير قابلة للتنازل أو التغيير - هنالك التلويح بالعلامات ذلك الشيء الذي لا يجهل، والسلاح الذي لا يقهر، وذلك المذاق الذي لا يمكن مقاومته أو الاستغناء عنه.

تقول إحدى الأمهات: "صدقيني لقد حملت بيدي أربع دفاتر أو أكثر من دفاتر ابنتي التي في المرحلة الإعدادية، وقد هالني حجم

الصور والرسومات التي بداخلها، وكنت في كل مرة تقع فيها عيني على إحدى الكراسات أظن أنها لماة التربية الفنية فأكتشف أن الكراسة لمادة علمية أو أدبية"، ثم تضرب الأم الحائرة كفا بكف على وقت ابنتها الضائع في الرسم والزخرفة، وترسم علامة تعجب كبيرة على وجهها لتقول بكل استغراب: الذي أتذكره أنني أرسلت ابنتي للمدرسة وليس إلى كلية الفنون الجميلة!!

والنتيجة البارزة من هذا التركيز الشديد هي استنفاد وقت الطالبة في الرسم والزخرفة والألوان على حساب الأولويات الأخرى التي كان حريا بأن يخصص الوقت الكافي للانشغال بها عما سواها من الأمور العادية والقليلة الشأن.

وبالرغم من صحة الرأي القائل إن كراسة الطالبة عنوان شخصيتها، ودليل ذوقها واهتمامها بدروسها، إلا أن التهويل والمبالغة في الفكرة يعتبر تعسفا ليس له ما يبرره.

والذي لا شك فيه أن إلحاح المعلمة على الشكل والمظهر بصورة مستمرة وعدم اكتفائها باجتهاد الطالبة الشخصي لا يصب في مصلحة المستوى التعليمي إلا بقدر يسير خاصة إذا علمنا أن ذلك الاهتمام بالتلوين والزخرفة يتفاوت ولا شك بين طالبة وأخرى حسب الموهبة والاستعداد لكل واحدة منهن، بل وحسب رغبتها في صرف وقتها للزخرفة وتجميل الكراسات أو في المذاكرة الجادة والاستعداد لما هو آت!!.

إن مثل هذا الروتين لا يتناسب أبدا مع وقت الطالبة الذي يتحرك عكسيا باتجاه التقلص والانكماش طالما أنها منكبة على الزخرفة وإظهار موهبتها الفنية، مما يعني صرف وقتها في أمور اقل أهمية.

نعم هذه الطقوس الفنية تتناسب مع حصة الرسم وحصص النشاط الحر أما أن تفرض الطقوس ذاتها أو قريبا منها على مواد علمية فذلك هو المبالغة ولا ريب، ويدل على قصور في النظر كان يفترض أن تتلافاه المعلمة.

فماذا يجدي المعلمة نفعا إن كانت الطالبة قد ضاقت ذرعا بهذه المطالب المضاعفة فانقلبت على رأسها لا تريد شيئا إلا النجاة من هذا الطوق الذي اسمه المواد الدراسية.

إن اليقظة التربوية تقتضي أن تبدأ المعلمة بالأهم قبل المهم، وبالأعظم أثرا وجدوى قبل الأقل منزلة وقيمة، فإذا أتينا إلى ترتيب الأولويات في هذا السياق فإن الذي لا شك فيه أن الأولى تحبيب الطالبة إلى المادة العملية، وصرف اهتمامها إلى المذاكرة واليقظة في متابعة الدروس وليس إلى البحث والركض وراء الألوان والصور التي لا يهدف من جمعها إلا أناقة الشكل، وليس القيمة العلمية التي يحملها ذلك الإنتاج في الأغلب والأعم!!

الثابت أن حكمة المعلمة وثاقب رأيها يسهمان في رفع مستوى التفاعل بين الطالبة وبين المادة الدراسية، ومن ثم فإن المنتظر

والمرجو ألاّ تنقض المعلمة غزلها بعد قوة أنكاثا بل تشجع الطالبة على الاهتمام بالمادة دون أن تكون ضريبة ذلك الاهتمام أوقاتاً تهدر في غير طائل وجهوداً تصرف في غير محلها!!

شيء من التوازن والاعتدال وسوف تنجلي الصورة الكاملة حول الخيار الأفضل، هل هو جهد مركز مضمون النتائج أم الإصرار على هدر الوقت في غير هدف حاسم!!